نوابغ العرب

١



الطبعة الثانية

طه حسين

بقلم : محمود عوض
وبريشة : مصطفى حسين

نوابغ العرب

١

طه حسين

عميد الأدب العربى

بقلم : محمود عوض

بريشة : مصطفى حسين

الطبعة الثالثة

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عوض ، محمود
طه حسين عميد الأدب العربى / بقلم محمود عوض
بريشة مصطفى حسين - ط ٣ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٦.
٢٠ ص ؛ ٢٨ سم — (نوابغ العرب ؛ ١)
تدمك : ٢ — ٧٠١٧ — ٠٢ — ٩٧٧
١ — الأدباء العرب.
٢ — طه حسين ، ١٨٨٩ — ١٩٧٣.
(أ) حسين ، مصطفى (رسام).
(ب) العنوان.

ديوى ٩٢٨,١

رقم الإيداع ٢٢٥٧١/ ٢٠٠٦ ٧/٢٠٠٦/٦١

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف : ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

طـــه حُسَـين

جلس أفراد الأسرة على مائدة الطعام فى منزلهم الريفى قرب مدينة مغاغة بالصعيد . وحين بدءوا يتناولون طعامهم خطر للصبى الصغير بينهم خاطر غريب ، هو أن يتناول طعامه بطريقة مختلفة عن طريقة إخوته كنوع من التجربة البسيطة التى يرضى بها حب الاستطلاع فى نفسه . وتساءل الصبى : « ما الذى يحدث لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟ لا شىء » .

وفعلا .. أخذ الصبى لقمة بكلتا يديه وغمسها من طبق الطعام المشترك على المائدة .. ثم رفعها إلى فمه . وما إن فعل هذا حتى أغرق إخوته فى الضحك سخرية منه .. فى حين اندفعت أمه تبكى شفقة عليه . أما أبوه فقد قال له فى صوت هادئ حزين : « ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بنى .. » .

كان هذا الصبى هو طه حسين . وكان دافعه فى ذلك التصرف الغريب هو حب الاستطلاع . وكانت تلك تجربة لم ينسها الصبى مطلقاً فيما بعد . ومن تلك الليلة بدأ يقيد حركاته بشىء من الرزانة والحياء لا حد له . ومما ساعده على ذلك أيضاً ما كان يسمعه من الرواة عن أبى العلاء المعرى ، الذى كان من أكبر شعراء العرب فى القرن العاشر الميلادى ، وكان فاقد البصر مثل طه حسين .

لقد تذكر الصبى أن أبا العلاء كان يتستر فى أكله حتى على خادمه ، مخافة أن يعمل عملا يسخر منه الناس أو يضحكون عليه . وكان هذا الحياء الشديد سبباً فى اعتكاف أبى العلاء عن الناس وتفرغه للتأمل والتفكير ونظم الشعر .

إن الصبى الصغير طه حسين لم يصبح فيما بعد شاعراً كأبى العلاء ، ولكنه أصبح واحداً من الدارسين لحياة أبى العلاء والمعجبين به .. والمؤلفين عنه الكتب العظيمة المفيدة .

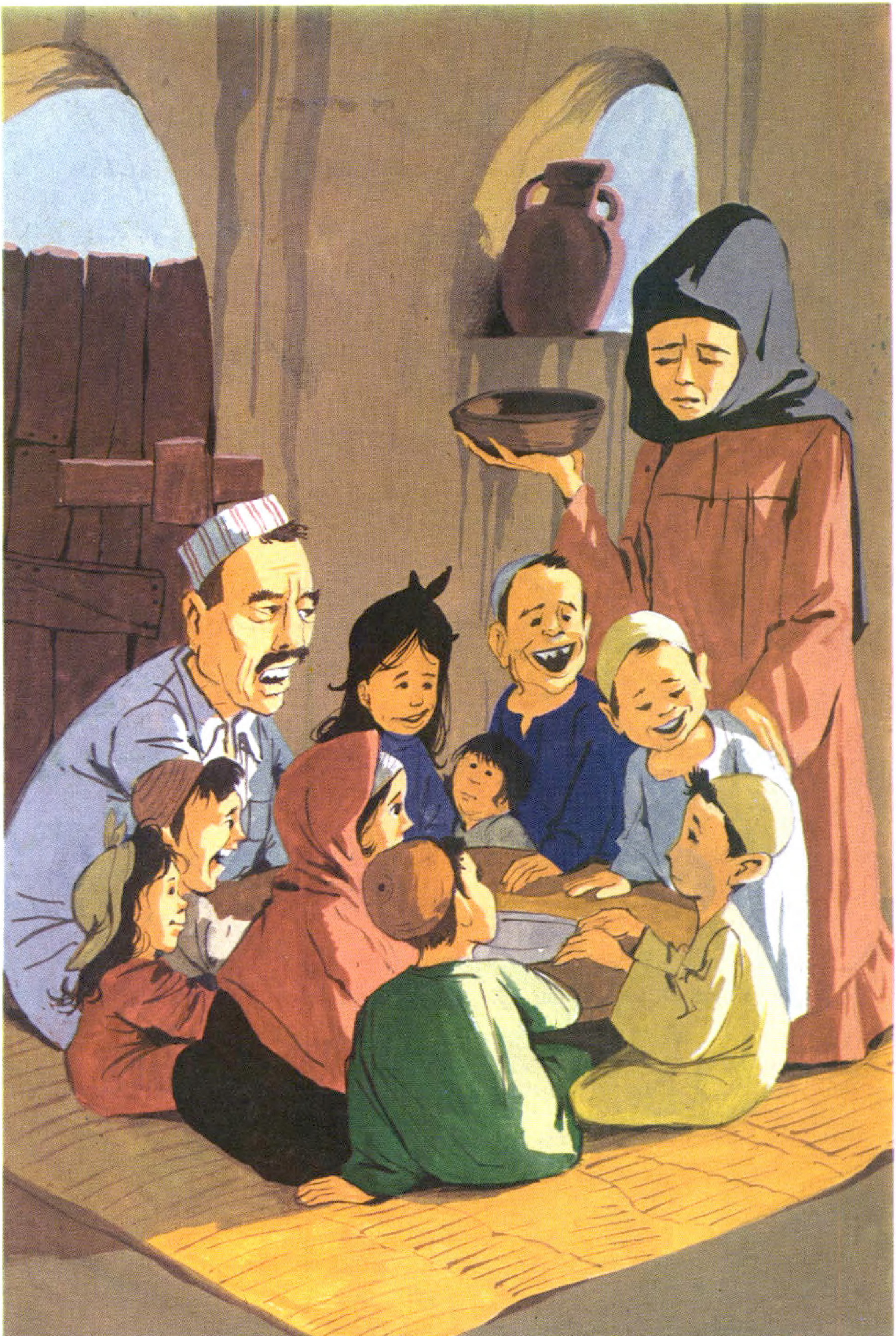
* * *

ولد طه حسين سنة ١٨٨٩ من أبوين متوسطى الحال فى إحدى قرى مركز « مغاغة » بصعيد مصر؛ لقد كان السابع بين إخوته الثلاثة عشر . وكان يشعر أن له بين هذا العدد الكبير من الشباب والأطفال مكاناً خاصًّا ممتازاً .

كان السبب فى مكانته هذه أنه فقد بصره عندما كان طفلا صغيراً عمره ثلاث سنوات . لقد حدث هذا لطه حسين بسبب الجهل والخرافات المنتشرة بين نساء الريف . فحينما يمرض طفل لا يفكر أحد فى الذهاب به إلى طبيب لعلاجه ، وإنما تلجأ النساء إلى « الوصفات البلدية » التى يعتقدن أنها تشفى أطفالهن . لقد أصيب الطفل الصغير طه حسين بالرمد فى عينيه . ولأن أسرته كبيرة العدد . . أهمل عدة أيام قبل أن يحضر « حلاق الصحة » لعلاجه . وكان هذا العلاج غير علمى .. وساعد على حدوث كارثة ، وفقد الطفل عينيه ، وعاش من يومها فاقد البصر . وهذا أثر العلاج المبنى على الجهل .

وبحكم العادة المنتشرة فى الريف وقتها .. دخل الصبى الصغير « كُتاب » القرية ، واستطاع أن يحفظ القرآن قبل أن يتم التاسعة من عمره .

وحينما تذكر طه حسين — فيما بعد — أيامه فى « كتّاب » القرية كتب يقول عن معلم « الكتّاب » :
كان « سيدنا » جالساً على دكة من الخشب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة ، قد وضعت على يمين الداخل من باب الكتاب بحيث يمر كل داخل « بسيدنا » . وكان « سيدنا » قد تعود متى دخل الكتاب أن يخلع عباءته ، أو بعبارة أدق « دفيته » ويلفها لفًّا يجعلها فى شكل المخدة ، ويضعها على يمينه ، ثم يخلع نعله ويتربع على دكته ، ويشعل سيجارته ، ويبدأ فى نداء الأسماء .



كان التعليم فى « كتاب » القرية وظيفة يقوم بها شخص واحد هو « سيدنا » . وكانت المادة الأساسية التى يلقنها « سيدنا » لأطفال الكتاب هى حفظ القرآن الكريم .

* * *

التحق الشاب طه حسين بالأزهر ، حيث تلقى فى حلقاته بين سنتى ١٩٠٥ و١٩٠٨ دروساً على شيوخه . لقد تضمنت دراسته علوم اللغة العربية وأصول الفقه الإسلامى وتاريخ الأدب العربى .

وطوال تلك السنوات كان يمضى الأسبوع والشهر وطه حسين « .. لا يعيش إلا على خبز الأزهر. وويل للأزهريين من خبز الأزهر ! إن كانوا ليجدون فيه ضروباً من القش وألواناً من الحصى وفنوناً من الحشرات » .

وفى سنة ١٩٠٨ انتسب طه حسين إلى الجامعة المصرية القديمة ، حيث درس على أساتذة جمعوا بين إلمامهم بالثقافة العربية القديمة وسعة الاطلاع على الثقافة الأوربية الحديثة .

واختتم طه حسين هذه المرحلة من حياته بالحصول على أول شهادة دكتوراه منحتها الجامعة المصرية فى سنة ١٩١٤ . كان موضوع الرسالة هو « تجديد ذكرى أبى العلاء » .. وهى تناقش حياة الأديب العربى الكبير أبى العلاء المعرى وفلسفته وإنتاجه ؛ وكان طه حسين من المعجبين به الدارسين حياته — هل تتذكره ؟

وفى سنة ١٩١٦ سافر طه حسين إلى فرنسا للدراسة ، وهناك حصل على الدكتوراه فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وعاد من فرنسا أستاذاً بالجامعة المصرية .



ولم تكن شهادة الدكتوراه هى الشيء الوحيد الذى عاد به طه حسين من فرنسا . فهناك — حيث كان يدرس بالجامعة — تعرف على زميلة له ، اسمها « سوزان » بدأت تساعده وتقرأ له . وتطورت الزمالة إلى إعجاب متبادل ، ثم إلى حب ، ثم إلى زواج تم فى ٩ أغسطس سنة ١٩١٧ .

لقد أصبح لهذه السيدة أثر عظيم فى مستقبل حياة طه حسين ، وقد كتب هو نفسه عنها فيما بعد قائلا : « لم ييسر لى حب الكتب وقراءتها إلا امرأتى .. هى التى حببت إلىّ القراءة ، وهى التى يسرت لى القراءة فى اللغتين الفرنسية والعربية وما ترجم إليهما من مختلف اللغات الأجنبية » .

وفى كتابه « الأيام » عدها ملاكاً ، وقال عنها لابنته : « لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك ، فبدله من البؤس نعيماً ، ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفواً » .

* * *

ولما أنشئت الجامعة المصرية (الحكومية) فى سنة ١٩٢٥ عين طه حسين أستاذاً للأدب العربى بكلية الآداب . وفى سنة ١٩٢٦ أصدر الدكتور طه حسين كتاباً بعنوان « فى الشعر الجاهلى » . وقد أحدث صدور هذا الكتاب ضجة هائلة كان وراءها خصومهالسياسيون الذين أرادوا اتهامه بالكفر والإلحاد . وعندما انتقلت الخصومة إلى مجلس النواب (البرلمان) هدد رئيس الوزراء بالاستقالة .. فهدأت الأزمة .

ولكن .. بعد قليل عاود خصوم طه حسين معركتهم . . فقدموا ضده بلاغات إلى النيابة العامة ، ونظموا مظاهرات ضخمة تهتف بسقوط طه حسين وبضرورة معاقبته . وعندما توجهت المظاهرة إلى بيت سعد زغلول بحسبانه زعيم الأغلبية استطاع سعد أن يهدئهم لأنه يريد التوفيق بين الحرية الفكرية



لطه حسين كأستاذ فى الجامعة .. وتهدئة خصوم طه حسين الذين تحركهم ضده أسباب سياسية لا علاقة لها بالكتاب الذى أصدره .

وانتهت الأزمة بسحب الكتاب من السوق ، وإعادة إصداره بعنوان جديد هو « فى الأدب الجاهلى » بعد أن حُذِفَ منه فصل وأضيفت إليه فصول جديدة .

* * *

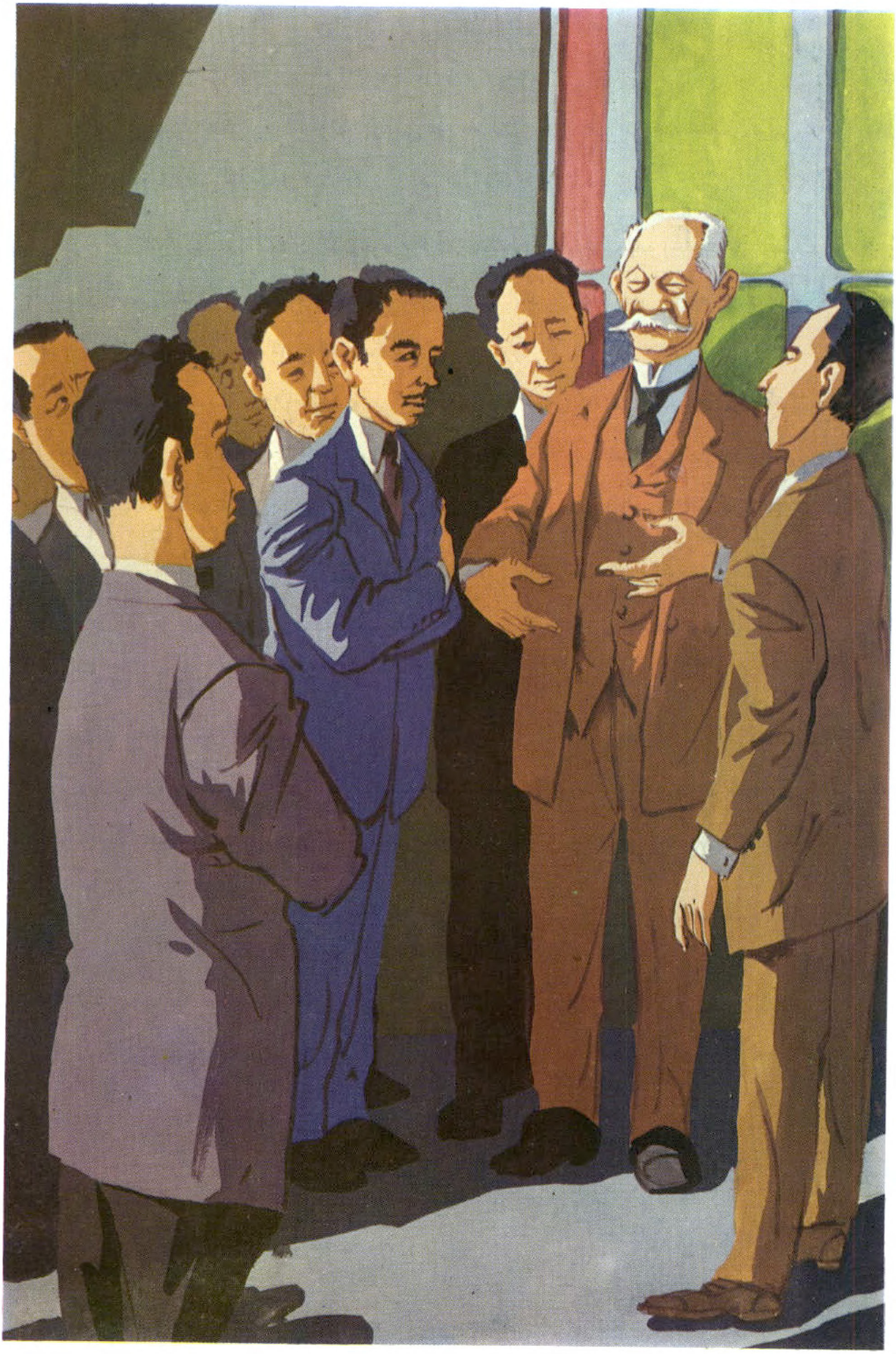
وفى سنة ١٩٢٨ عين طه حسين عميداً لكلية الآداب . فأدى هذا القرار إلى أزمة سياسية جديدة . لقد تدخل وزير المعارف لمنع تعيين طه حسين عميداً بسبب تعاطف طه حسين مع حزب سياسى آخر غير الحزب الذى ينتمى إليه الوزير . ولقد وصلت الأزمة إلى قمتها عندما طلب الوزير من طه حسين أن يستقيل . . وقبل الدكتور طه الأمر بشرط أن يعتمد الوزير أولا قرار تعيينه . وفعلا . . تم تعيين طه حسين عميداً لكلية الآداب . وبعدها بيوم واحد قدم استقالته ، وأعيد العميد الفرنسى للكلية .. وكان اسمه « ميشو » .

* * *

فى مارس سنة ١٩٣٢ أصدر مجلس الوزراء — بعد اجتماع طويل — قراراً بإحالة طه حسين إلى التقاعد ، وكان قد نقل من قبل من عمله كعميد لكلية الآداب ، وهو العمل الذى قام به منذ سنة ١٩٣٠ ، إلى عمل آخر فى وزارة المعارف (التربية والتعليم) .

لقد كان هذا القرار العنيف نهاية لأكبر مأساة سياسية عاشها طه حسين فى حياته .

وقصة هذه المأساة بدأت عندما شكل رئيس الحكومة حزباً جديداً أسماه « حزب الشعب » ، وقرر



إصدار جريدة تنطق بلسان الحزب ، وعرض على طه حسين أن يستقيل من عمله الجامعى ليرأس تحرير الجريدة ، فرفض طه حسين هذا الطلب ، وأصر على رفضه .

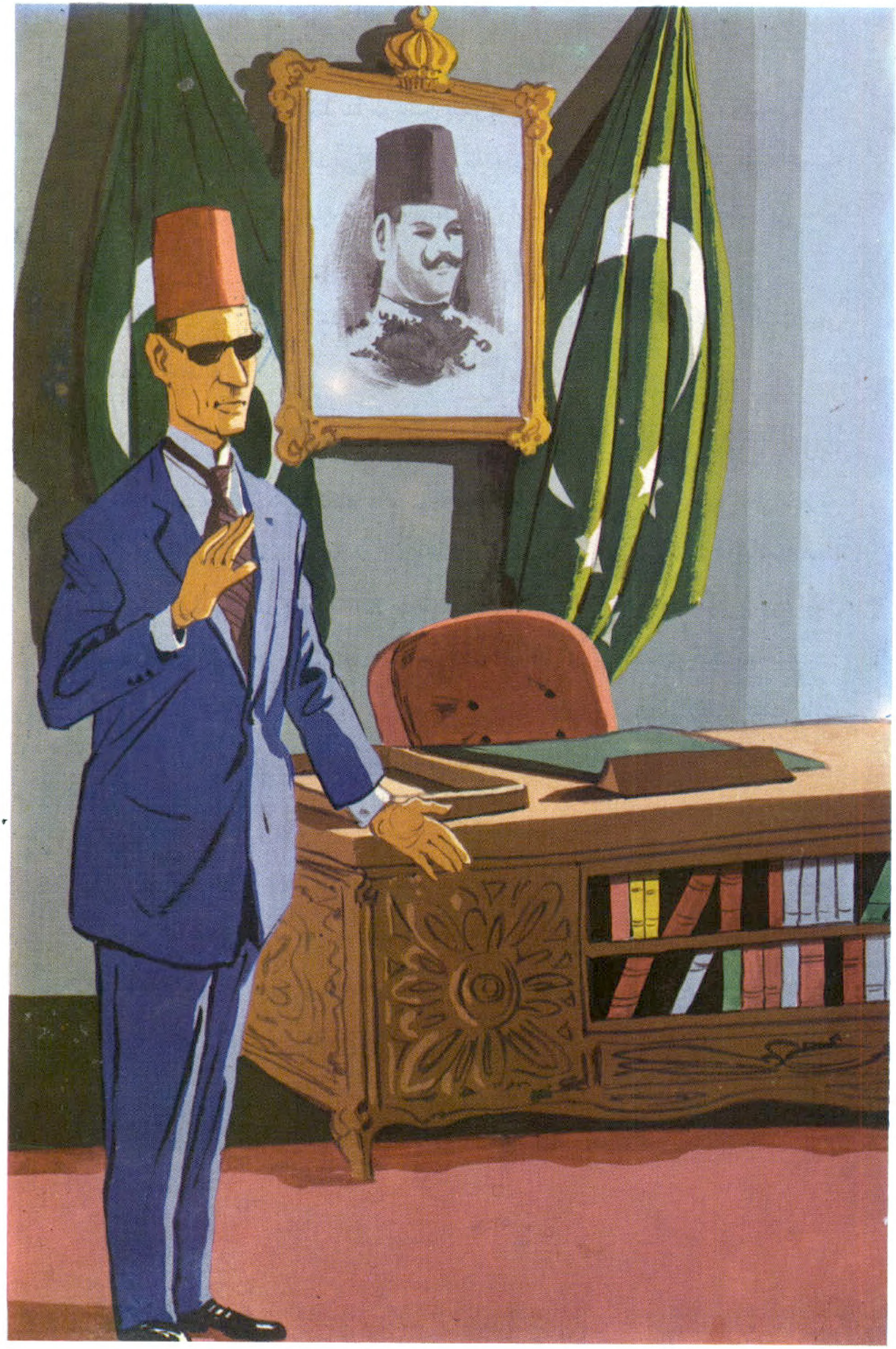
كان السبب فى ذلك أن الملك فؤاد أراد أن يجعل من هذا الحزب يده الحديدية التى يضرب بها الشعب ، وأن يجعل الحكومة وسيلته فى مصادرة حرية الناس . لهذا رفض طه حسين أن يتعاون مع الحزب الجديد ، ورئيسه الذى كان رئيساً للوزراء .

وفى فبراير سنة ١٩٣٢ طلب وزير المعارف من طه حسين بناء على رغبة الحكومة ، أن يقترح على مجلس كلية الآداب منح الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب لعدد من كبار الأعيان ، لأن الحكومة تريد أن تكافئهم على ولائهم السياسى لها . ويومها رد طه حسين على وزير المعارف قائلا :

ــ يا باشا .. إن عميد كلية الآداب ليس عمدة .. تصدر إليه الأوامر من وزير المعارف . أنا لا أوافق على إعطاء الدكتوراه الفخرية لأحد لأنه من كبار الأعيان ، ولا أستطيع أن أعرض الأمر على مجلس الآداب .. لأن المجلس لن يوافق .

فأصدر وزير المعارف فى ٣ مارس سنة ١٩٣٢ قراراً بنقل طه حسين إلى وزارة المعارف عقاباً له على موقفه . فنفذ طه حسين النقل ، لكنه رفض العمل ، فتطورت الأزمة ، وقامت مظاهرة ضخمة انتهت باجتماع عقده مجلس الوزراء ، وأذاع رئيس المجلس قراراً فى ٢٩ مارس بإحالة الدكتور طه حسين إلى التقاعد .

تعلم طه حسين درسين هامين من خلال أزمته : فأولا ــ لا بد من توفير الحرية الكاملة للبحث والدراسة داخل الجامعة . وثانياً ــ لا بد من نشر التعليم بين فئات الشعب حتى لا تنخدع بالشعارات البراقة التى يرفعها السياسيون .



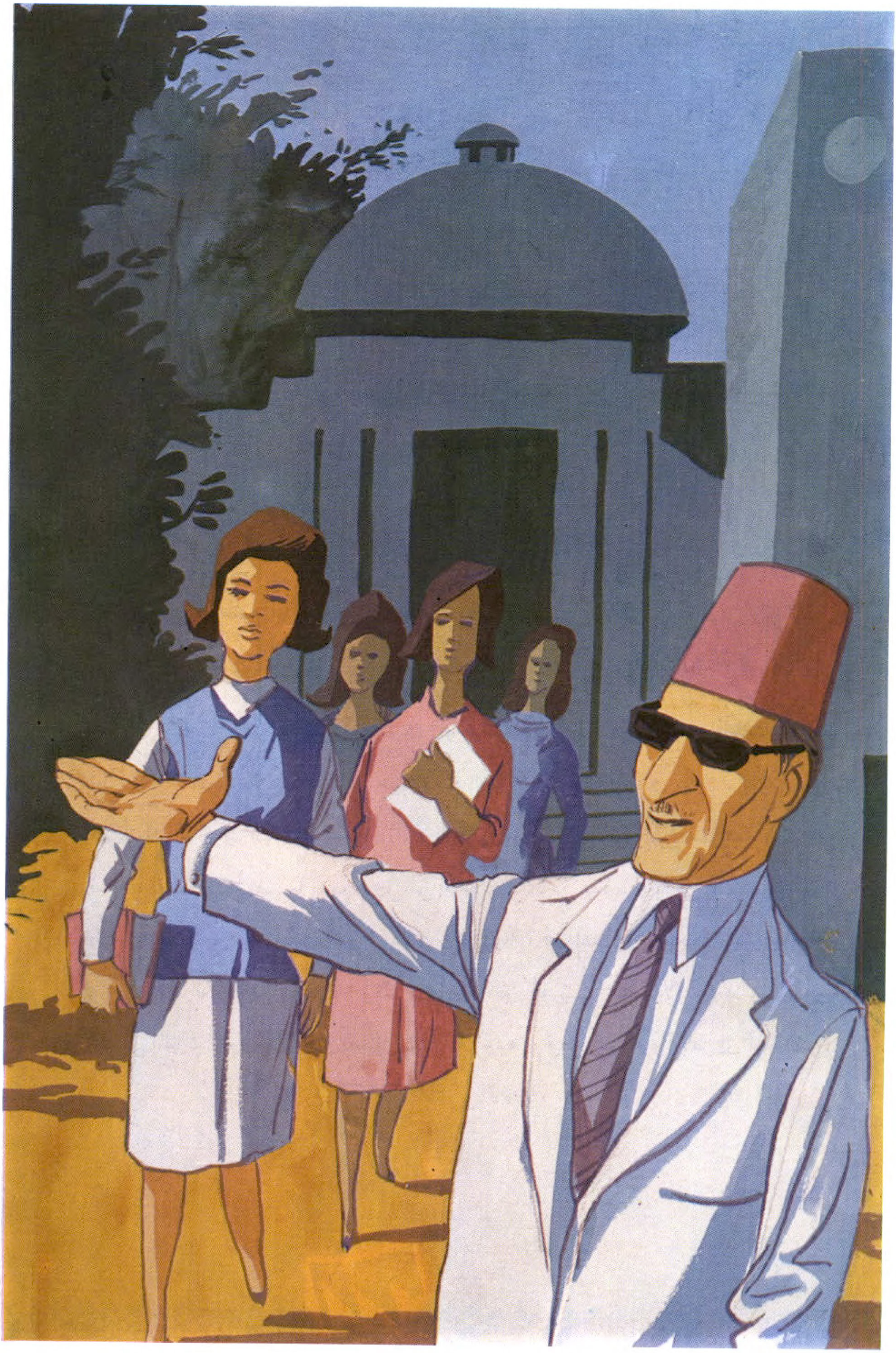
أما عن الدرس الأول ، فقد بدأ طه حسين يدعو له في مقالاته المختلفة في المجلات والصحف ، وفي المحاضرات والندوات ، وأما عن الدرس الثاني فقد بدأ طه حسين يطالب بمجانية التعليم لكل فئات الشعب ، لأن التعليم ضروري للناس ضرورة الماء والهواء . وبدأ أيضاً ينبه إلى المشكلات الحقيقية التي يعانيها الشعب .

لقد كتب طه حسين مرة بعد خطبة رئيس الوزراء التي حدد فيها برنامج الحكومة – وكانت تسمى « خطاب العرش » .

– كتب يقول : « كانت رائعة بارعة خطبة العرش التي ألقاها رئيس الوزراء في البرلمان . صورت لنا الحياة المصرية كأحسن ما تكون الأمم : حكومة جادة لا تنام ولا تنيم ، وشعب عامل لا يريح ولا يستريح ! وقد رضيت الحكومة عن نفسها فأثنت على نفسها . ورضي البرلمان عن الحكومة فصفق للحكومة ، وسمع الشعب للحكومة تقول وللبرلمان يصفق . فرفع الأكتاف وهز الرءوس ، وترك الخلق للخالق ، وأقبل المترفون على ترفهم ينعمون بغير حساب ، وأقبل المحرومون على حرمانهم يألمون بغير حساب ... وفي أثناء هذا كله ، كان المواطنون يموتون مئات ، ويمرضون مئات ... وفي أثناء هذا كذلك كانت ملايين من المواطنين تنعم بالجهل الذي يحجب عنها حقائق الحياة ! » .

* * *

وبدأ طه حسين يضاعف من حملته لتعليم المرأة ، ولفتح باب التعليم الجامعي أمامها ، لأنها نصف الأمة . وكان طه حسين من قبل هو أول من اقترح على مدير الجامعة (أحمد لطفي السيد) أن يقبل الفتيات فيها لأول مرة ، وأن يتم إعفاؤهن من دفع الرسوم لتشجيعهن على الالتحاق بالجامعة . وقد توسع طه حسين في ذلك عندما أصبح هو نفسه مديراً لجامعة الإسكندرية سنة ١٩٤٢ .



ونادى طه حسين بمجانية التعليم لكل طبقات الشعب . وظلت صيحته تضيع هباء إلى أن عين وزيراً للمعارف فى يناير سنة ١٩٥٠ ، فقرر مجانية التعليم الثانوى والتعليم الفنى .. ثم حاول أن يجعل التعليم العالى هو الآخر مجاناً . . فرفض الملك فاروق .

لقد استمر طه حسين وزيراً للمعارف سنتين ، استطاع خلالهما أن يطبق جزءاً من الآراء التى يؤمن بها . ولكنه مع ذلك لم يسلم من الخصومات السياسية التى تحركت ضده .

وفى مرة ذهب يزور إحدى المدارس الثانوية ، فنظم خصومه السياسيون مظاهرة تهتف بسقوطه قائلة : يسقط الوزير الأعمى ..

ويومها رد عليهم طه حسين قائلا : إننى أحمد الله أن جعلنى أعمى .. حتى لا أرى وجوهاً مثلكم !

* * *

استطاع طه حسين أن يتناول فى كتاباته موضوعات كثيرة .. ومجالات شتى كان من بينها القصة . اقرأه مثلا فى قصة « شجرة البؤس » وهو يحلل أزمة بطل القصة التى يواجهها بعد أن تعددت زوجاته :

« .. فقد كثر نساؤه ، وأخذ ولده يكثرون ، وأخذت النفقة تزداد وتثقل أعباؤها ، وأخذت الحاجات تكثر وتتنوع وتتعقد والربح يذوب فى هذه الأسرة الكبيرة كما يذوب الملح فى الماء .. وحياته مطردة مضطربة : تجارة أول النهار ولغو آخره . . . ثم العودة إلى داره ليقضى بقية الليل عند هذه لا تلك من نسائه ، يسمع منها أبغض ما يسمع الرجل من امرأته : شكاة من هذه ، ونعياً على تلك ، وعيباً للثالثة وثناء على نفسها ، ثم إلحاحاً فى التسوية بينها وبين ضرائرها ، فقد أهدى إلى هذه ما لم يهد إليها مثله . وزعمت تلك أنه ترك من النقد كذا وكذا درهماً على حين أنه يبيت عندها ولا يترك لها شيئاً . وإنها لتلتمس الملمات تشترى بها الحلوى لصبيها البائس فلا تجدها ، فيظل ابنها محروماً ينظر إلى أبناء الضرائر





وهم فرحون بما فى أيديهم من الحلوى وما فى جيوبهم من ألوان النقل .

« وعلى هذا النحو تنغص عليه ليلته حتى ينتظر الصبح أشد ما يكون إليه شوقاً . فإذا سمع صوت المؤذن أسرع إلى وضوئه وصلاته ، يظن أن التقوى هى التى تدفعه إليهما ، وما كان يدفعه إليهما إلا الهرب من هذه الحياة البغيضة » .

* * *

لقد كتب طه حسين فى القصة : « شجرة البؤس » و« الحب الضائع » و« دعاء الكروان » و« صوت باريس » .. وكتب فى الأدب والنقد مؤلفات كثيرة كان من بينها « مع أبى العلاء فى سجنه » ، الذى أعجب به طه حسين منذ طفولته ، وكتب فى التاريخ الإسلامى « على هامش السيرة » و« الوعد الحق » و « الشيخان » و « عثمان » و « على وبنوه » وكتباً أخرى تنوعت فى موضوعاتها وفى ألوانها .

على أن أشهر ما كتبه طه حسين هو كتابه « الأيام » .. الذى سجل فيه قصة حياته وسيرته الذاتية . وقد ترجم هذا الكتاب إلى بعض اللغات الأجنبية .

قال الأديب الكبير محمود تيمور إن طه حسين : « فكر مستقل ، وروح خيرة ، وصبغة فنان » .

وقالت عنه إحدى تلميذاته فى الجامعة : « لقد علمنا طه حسين شيئاً أكبر جداً مما وجدناه فى الكتب » وأطلق عليه معاصروه لقب « عميد الأدب العربى » . كما ترجم عدد من مؤلفاته إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والصينية والروسية والفارسية . وقامت جامعات أجنبية فى أوربا بمنحه شهادة الدكتوراه الفخرية تكريماً له وتقديراً لما ترجم من أعماله .

* * *

وقد كان أكبر تكريم لطه حسين أن الدولة منحته أرفع وسام وكرمته أحسن تكريم وقام رئيس الجمهورية — فى عيد العلم — بتسليمه جائزة الدولة التقديرية فى الأدب .

طبع بمطابع دار المعارف